من السياق الاجتماعي إلى المعنى الدلالي
قراءة في مقدمة سنية صالح لديوان محمد الماغوط

From the social context to the meaning
A reading of Sania Salih's Forward to Mohamed Almaghout's collection of poems.

د.رضوان كعية
أستاذ بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
مراكش آسفي (المغرب)

تاريخ الإرسال: 2019/05/08	تاريخ القبول:2019/05/19	تاريخ النشر : 2019/12/01

Abstract

This article aims to present a reading of Saniya Salih's ' Forward to the poems of Mohammed ELMAGHOUT'. It is a reading that takes into consideration the social context that surrounded the production of these poems and how it helped her in understanding and interpreting them.

What are the main topics of this Forward? How can we understand a text from its social context? To what extent this context enables us to discover the aesthetic sides of a literary text?

These are the main questions we will try to approach in this research.

ملخص البحث

يتوخى هذا البحث تقديم قراءة في مقدمة سنية صالح للآثار الكاملة لمحمد الماغوط. وهي قراءة انطلقت من السياق الاجتماعي الذي أحاط بإنتاج النص الشعري وساعدها على تلقيه وتأويله.

ما هي القضايا الكبرى التي تناولتها سنية صالح في مقدمتها للأعمال الكاملة لمحمد الماغوط؟ كيف يمكن فهم عمل لأدبي انطلاقا من السياق الذي نشأ فيه؟ إلى أي حد يمكننا هذا السياق من كشف الجوانب الجمالية في العمل الأدبي؟ تلكم أهم الأسئلة التي سنسعى إلى مقاربتها من خلال البحث.

الكلمات المفاتيح: الخطاب المقدماتي ؛ السياق الاجتماعي ؛ العمل الإبداعي ؛ الوعي الممكن ؛ التأويل.

تقديم:

تعد أحاديث المبدعين عن تجاربهم الأدبية، أو أحاديث غيرهم عن تلك التجارب نوعا من المداخل الاستراتيجية لولوج الأعمال الإبداعية، وهي غالبا ما تكون في شكل مقدمات تتصدر هذه الأعمال. وتكمن أهميتها في كون قراءة المتن تصير مشروطة بقراءة هذه النصوص. والنتيجة أنها تؤدي وظيفة هامة في "ضمان قراءة سليمة للكتاب. وفي غيابها قد تعتري المتن بعض التشويشات"[1].

وعليه يتوخى هذا البحث تقديم قراءة في مقدمة سنية صالح[2] للآثار الكاملة لمحمد الماغوط[3]. وهي قراءة اعتمدت فيها الناقدة استحضار السياق الخارجي الذي أحاط بإنتاج النص الشعري وساعدها على تلقيه وتأويله.

ما هي القضايا الكبرى التي تناولتها سنية صالح في مقدمتها للأعمال الكاملة لمحمد الماغوط؟ وإلى أي حد اضطلعت دراستها بوظيفتها كخطاب مقدماتي؟ وإلى أي حد أسعفها المنهج الاجتماعي في استجلاء الجوانب الجمالية في أعمال محمد الماغوط؟ تلكم أهم الأسئلة التي سنسعى إلى مقاربتها من خلال البحث.

1 . الآثار الكاملة لمحمد الماغوط:

تتكون هذه الآثار من 616 صفحة من القطع الصغير، موزعة على الشكل الآتي:

- مقدمة بقلم سنية صالح، وتقع في حوالي سبع صفحات.
- حزن في ضوء القمر: وهي مجموعة شعرية تتألف من ثماني عشرة قصيدة.
- غرفة بملايين الجدران: وهي مجموعة شعرية تضم اثنين وعشرين قصيدة.
- الفرح ليس مهنتي: مجموعة شعرية تتكون مناثنين وثلاثين قصيدة
- العصفور الأحدب: وهي مسرحية.
- المهرج: وهي مسرحية أيضا.

2- "طفولة بريئة وإرهاب مسن":

اختارت سنية صالح لمقدمتها عنوان "طفولة بريئة وإرهاب مسن"، وهو عنوان يجمع بين طرفين متناقضين: "طفولة بريئة" مقابل "إرهاب مسن". ويبدو أن اختيار الناقدة هذا، يوحي بالعفوية التي حكمت كتابات الماغوط، إلا أنها كانت عفوية مغلفة بـ"إرهاب مسن"، مورس على الشاعر منذ طفولته، ووصولا إلى تقلبات الدهر المستمرة التي عانى منها.

وقد تناولت سنية صالح، في تقديمها للآثار الكاملة لمحمد الماغوط، مجموعة من القضايا الكبرى، نوجزها كالآتي:

1-1- السجن في حياة محمد الماغوط:

ترى سنية صالح أن أهم مكان أثر في حياة محمد الماغوط هو السجن، فقد ولد في غرفة مسدلة الستائر اسمها الشرق الأوسط[4]، وتحديدا بمدينة سلمية السورية، عام 1934[5]. ولم يغادر هذه المدينة إلا في سن الرابعة عشر، عندما تم اعتقاله. يقول في حوار له مع خليل صويلح: "أما مغادرتي النهائية لسلمية، فكانت بين 1955 و1956، عندما اعتقلت لأول مرة، وكان المكان الأول الذي أزوره خارج السلمية سجن المزة"[6].

وقد حاول الشاعر منذ مجموعته الأولى "حزن في ضوء القمر"، أن يتنسم الحرية، وذلك حتى يستطيع الخروج من أنواع السجون التي مر بها لكن دون جدوى. يقول مخاطبا صديقه خليل صويلح: "إذا كنت تعتقد بأن الجلوس إلى مكتب أو مائدة، ثم الاضطجاع على سرير أو في المقهى هو استقرار واطمئنان، فأنت مخطئ. هذه (الامتيازات) إن هي إلا عتبة، نحو دهليز من الفراغ الرهيب. إن ارتداء أفخر الثياب، وتناول وجبة طعام، ومضاجعة امرأة، أشهى امرأة، لا تستغرق إذا راعينا عصر السرعة أكثر من ساعتين في اليوم. فماذا أفعل بالاثنين والعشرين ساعة المتبقية؟ هل أضعها في البنك؟ إنني مثل السجين الذي ظل يحفر نفقا في زنزانته لمدة عشرين عاما، ثم اكتشف أن النفق الذي حفره يقوده إلى زنزانة أخرى[7].

هذه هي حقيقة مأساة الماغوط التي أشارت إليها سنة صالح في أول جملة من تقديمها لأعماله الكاملة، وهي حقيقة تنم عن تصور عام للسجن؛ فهو يتجاوز السجن الحكومي ويتعداه إلى سجن من أنواع أخرى، حيث الظلم الطبقي الذي عاشه في قرية السلمية قبل اعتقاله، وحيث الخوف الذي بقي يلاحقه حتى بعد خروجه من السجن.

بحث الماغوط عن سبيل للحرية التي ستخلصه من سجنه الأبدي، فوجد ضالته في الكلمة، لكنها بدورها ليست طريقا إلى الحرية إلا في الحلم، أما في الواقع فهي طريق إلى السجن[8]. ونتيجة لذلك، عانى الماغوط من مطاردة السلطة، مما جعله يختبئ في "غرفة واطئة بحي (عين الكرش)، غرفة نصفية، كان عليه أن ينتحى كي لا يصدم رأسه بالسقف (...) كانت غرفة ضيقة ومسدلة الستائر كأنها غرفة تحميض"[9].

وهكذا يظهر لنا تضييق السلطة على الشعراء المناهضين للنظام، ومن هنا تنبثق إشكالية السياسي والمثقف؛ فإذا كان الأول يروم الحفاظ على النظام بشتى الوسائل القمعية، فإن مأساة الثاني أن يوجد في الجهة

المقابلة وهي التغيير، ومن ثم نرى أن الماغوط يشن ثورة على الماضي والحاضر، ويتطلع إلى المستقبل المشرق، البعيد عن السلطة، لأن هذه الأخيرة ستجعل من الشعر المناهض لها رمادا لو تركنا الشعراء لها، على حد تعبير سنية صالح[10].

وجملة القول، فإن الماغوط لم يشعر في حياته كلها بالحرية[11]، على حد تعبيره، مما انعكس على شعره، حيث كتب قصيدة النثر المتحررة من الوزن والقافية والتفعيلة، يقول معرفا الشعر: "الشعر نوع من الحيوان البري. الوزن والقافية والتفعيلة تدجنه، وأنا رفضت تدجين الشعر، تركته كما هو حرا، ولذلك يخافه البعض. وأعتقد أن "قصيدة النثر" هي أول بادرة حنان وتواضع في مضمار الشعر العربي الذي كان قائما على القسوة والغطرسة اللفظية، كما أن هذه القصيدة مرنة، وتستوعب التجارب المعاصرة بكل غزارتها وتعقيداتها، كما أنها تضع الشاعر وجها لوجه أمام التجربة وتضطره إلى مواجهة الأشياء دون لف وراء البحور، أو دوران على القوافي"[12].

1 . 2 – فترات الخصب عند محمد الماغوط:

ترى سنية صالح أن فترات الخصب عند محمد الماغوط تتواقت مع الأزمات[13]. وهو ما أكده حين صرح أن أول حرف متوهج كتبه وهو قصيدة "القتل"، كان في ظلام السجن البارد، في منتصف الخمسينات[14]، دون أن يعرف أنها شعر، لولا أن أكد له أدونيس أنها كذلك[15].

كما أن مسرحية "العصفور الأحدب"، كتبها لما كان مختبئا في غرفته بحي (عين الكرش). وقد كانت هذه الغرفة مكانا لا يصلح سوى لقراءة الكتب التي كانت سنية صالح وكذلك زكريا تامر يجلبانها له[16]، وقد أعطته تلك الإقامة السرية فرصة كبيرة للتأمل الذهني[17] على حد تعبير زوجته.

1 . 3 . محمد الماغوط والمسرح:

لم يجد محمد الماغوط في الشعر ما يشفي غليله، فالبيئة المضطربة التي عاش في مناخها أصبحت متقلبة ودائمة التحول، فأضحى الوجود الإنساني وجودات لا حصر لها، مما دفعه إلى كتابة أجناس أخرى غير الشعر، فطرق باب المسرح، ربما لأن الإنسان يتأثر بصريا وهو يشاهد تفاعل الشخصيات في بث حي ومباشر، أكثر من تأثره وهو يسمع قصيدة أو يقرؤها. كتب الماغوط مسرحية "العصفور الأحدب"، ثم بعدها مسرحية "المهرج".

وقد انعكس واقع الماغوط على عالم أبطاله المسرحيين، جاء على لسان راوي مسرحية "العصفور الأحدب": "**قاعة محكمة منخفضة السقف جدا ومظلمة جدا. القاضي يجلس خلف طاولة مرتفعة تأخذ حيزا كبيرا**

من ساحة القاعة، وقد تدلت السياط المجدولة من زواياها. حاجب مدجج بالسلاح على يمين القاضي. المتهم يقف بعيدا كالجرذ في الجانب الآخر من القاعة، وخلفه صورة جمجمة وعصفور معلقة على الحائط. هو نفسه صانع الأحذية الذي كان معتقلا في الصحراء"[18].

3 . المنهج النقدي في مقدمة سنية صالح:

اعتمدت سنية صالح في تقديمها موضوع البحث منهجا اجتماعيا، مدت من خلاله جسور اللقاء بين السياق الاجتماعي والسلوك الإبداعي لمحمد الماغوط، حيث توقفت عند المنشأ الذي ينحدر منه المبدع، بالإضافة إلى بعض الإشارات حول أهم المضامين الاجتماعية في أعماله.

بيد أن استثمار المنهج الاجتماعي في تقديم الأعمال الكاملة لمحمد الماغوط، لم يكن سطحيا؛ إذ نلاحظ أن الناقدة تجاوزت مفهوم "الانعكاس" السائد الذي يقول بأن "الأدب يعكس الحياة أو يعبر عنها"[19]. وقد تجلى ذلك في وعيها بأن الأصول الاجتماعية للكاتب لا تلعب إلا دورا ثانويا في المسائل التي يثيرها مركزه الاجتماعي وولاؤه وإيديولوجيته، لأن الكتاب يضعون أنفسهم في خدمة طبقة أخرى غالبا[20]. ذلك أن الماغوط كان مبدعا ثائرا حتى على مجتمع الشعراء الذين ينتمي إليه، مما جعله يكتب قصيدة النثر، بل ويتجاوز دائرة الشعر ويأوي إلى أجناس أدبية أخرى، هذا بالإضافة إلى رفضه كل أشكال الرقابة المفروضة عليه.

لقد كانت الناقدة على وعي بأن الدراسات الاجتماعية للأدب التي لا تبرح البحث عن مرآويته هي دراسات غير مجدية، مادامت قائمة على أن الأدب هو إعادة إنتاج للحياة أو هو وثيقة اجتماعية. ولذلك كشفت الدراسة عن موقع الصور التي أبدعها الماغوط من الحقيقة الاجتماعية، وما مدى انزياحها عن معايير الأعراف التي تواضعت عليها بنيات المجتمع.

ونتيجة لما سبق، نجد أن أبرز مفهوم اعتمدته سنية صالح في تقديمها هو "الوعي الممكن"، أو "أقصى ما يمكن أن يبلغه وعي الجماعة دون أن يؤدي ذلك إلى تغيير طبيعتها"[21]؛ ذلك أن جل أعمال الماغوط موضوع الدراسة تكشف عن رفض للمعاناة التي تعيشها الطبقة التي ينتمي إليها، وتحمل في طياتها بعدا إصلاحيا ينتقد الواقع، ويسعى إلى إعادة تصحيح أعرافه الاجتماعية في أفق أكثر انفتاحا وتحررا. وهو ما نجده في عدة مواطن من الديوان، جاء في قصيدة "القتل" مثلا:

"الطائر الذي يغني يزج في المطابخ

الساقية التي تضحك بغزاره

يربى فيها الدود

تتكاثر فيها الجراثيم"[22]

ينتقد الشاعر في هذا المقطع كل أشكال الرقابة الممارسة على المبدعين، حيث شبههم تارة بالطائر الذي لم ينفعه صوته الغرِّيدُ في تحريك مشاعر قاتله الذي لم ير فيه سوى وجبة لإشباع غريزة الجوع. وشبههم بالسواقي الضاحكة، التي لم تجلب لها غزارة مياهها سوى الديدان والجراثيم.

لقد أضحى المبدعون الثوريون الذين يتحدث عنهم الماغوط أهدافا مباشرة تسعى جهات الرقابة إلى إسكاتها، نظرا للخطر الذي تنضح به كلماتها. والحل الذي اهتدت إليه هو الزج بهم في السجن. أما موقف الماغوط من هذه الممارسات فهو الرفض إلى حد الكراهية، يقول:

"لقد كرهت العالم دُفعة واحدة

هذا النسيج الحشري الفتاك

وأنا أسير أمام الرؤوس المطرِقة منذ شهور

والعيون المبللة منذ بدء التاريخ

ماذا تثير بي؟ لا شيء"[23]

يرفض الشاعر من خلال هذا المقطع موقف ما آلت إليه أوضاع مجتمع أصبح فارغا من جوهره الإنساني، فقد تحول أهله إلى حشرات فتاكة، وهم في أحسن الأحوال أناس لا يملكون سوى الخضوع لكل أشكال المذلة والبكاء على حالهم المؤسف.

على أن رفض الماغوط لواقع مجتمعه "ليس بمعنى التخلي الشعوري عن هذا الواقع، وإنما بمعنى الطموح الملح لخلق وجود بديل عنه. وجود آخر يهيم معه في سفره"[24]. يقول:

"إنني رجل من الصفيح

أغنية ثقيلة حادة كالمياه الدفقه

كالصهيل المتمرد على الهضبة."[25]

عبر الشاعر من خلال هذا المقطع عن إيمانه بإمكانية البعث والتجديد، وهي محاولة للانتصار على الموت الذي عم الواقع الذي نشأ فيه، عن طريق منحه جرعة حياة تعيد للوجود الإنساني معناه الذي فقده. ولذلك نرى الشاعر قد صور نفسه رجلا من الصفيح، قابلا للتأقلم مع كل تحول بشكل لا يفقده قوته وصلابته. وهو أيضا أغنية ثقيلة دائمة التدفق، قادرة على النفاذ إلى أفئدة الجماهير، حتى تنتشلها من معاناتها. يقول:

"بالأنفاس الكريهه

والأجساد المنطوية كالحلزونات

بقوى الأوباش النائمة بين المراحيض

سنبني جنينة للأطفال

وبيوتا نظيفة، للمتسكعين وماسحي الأحذيه"[26]

يكشف هذا المقطع عن رؤية الشاعر المتفائلة للأشياء، رؤية يسعى من خلالها إلى مواجهة الواقع وفضحه وتعريته، ثم إعادة تشكيله من جديد ليتحول إلى واقع مشرق.

4 . مقدمة سنية صالح وحدود التأويل:

يرى بعض الدارسين[27] أن النماذج البنيوية تصلح أن تكون آليات لبداية غامضة نحو تأمل المطلق، وهذا يعني أن الاكتفاء في دراسة نص . باعتباره بنية . على عناصره الداخلية فقط لا يكفي من أجل تأمله وفهمه؛ ذلك أن المستوى الوظيفي وكذا المعجمي لا يسعفان إلا في إجلاء المعنى الحرفي للعبارة.

ويزداد الأمر استفحالا حينما نكون أمام نص أدبي، يعتمد لغة عصية على المعالجة العلمية، لا تسلم بانغلاق الدلالة[28]، الشيء الذي يجعل الإفادة من السياق الخارجي أمرا لا مناص منه لكونه يعمل على "توفير إطار لدراسة الخطاب الذي يعتبر شديد الحساسية للظروف الاجتماعية والتاريخية والنفسية التي تلعب دورا حاسما في معرفتنا باللغة"[29].

وعليه فإن اعتماد الناقدة على المنهج الاجتماعي في تقديمها لأعمال محمد الماغوط الكاملة، هو إجراء منهجي، وذلك لاعتبارات أهمها أن دراستها لا تخرج عن كونها "مقدمة" تسعى إلى "تنبيه القارئ وتوجيهه وإخباره بأصل الكتاب وظروفه ومراحل تأليفه ومقصد مؤلفه"[30]. كما أنها تهدف إلى "توجيه القراءة وتنظيمها، كما تسعى إلى تهييء القارئ لاستقبال مشروع قيد التحقق سيكون مجاله متن الكتاب"[31]، وهي مع ذلك لا تغلق باب التأويل،

فلا تفرض نفسها على النص، ولا تلغي باقي القراءات، وإنما تقدم نقطة بدء مضيئة يمكن الاهتداء بالإشكالات التي تطرحها في أفق قراءة النص من زوايا مختلفة.

خاتمة:

نخلص مما سبق إلى جملة من النتائج، نوردها على الشكل الآتي:

1 . شكَّل تقديم سنية صالح لأعمال محمد الماغوط إضاءة مهمة عملت من خلالها على استحضار أحد الشروط الأساسية لاكتمال المعنى الدلالي وهو السياق الخارجي المتمثل في المنشأ الاجتماعي لمحمد الماغوط.

2 . يبدو أن الناقدة عرفت كيف تستفيد من المنهج الاجتماعي حيث عملت على تحفيز القارئ ومساعدته على كشف الجوانب الجمالية والدلالية للنص قيد المقاربة.

3 . لم تتجاوز دراسة سنية صالح الحدود المرسومة لها كخطاب مقدماتي، يسعى إلى وضع النص في سياقه، والتمهيد لقراءات أخرى.

لائحة المراجع

. رينيه ويليك، أوستين وارين: نظرية الأدب، ترجمة محيي الدين صبحي، مراجعة حسام الخطيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1987.. عبد الرزاق بلال، مدخل إلى عتبات النص: دراسة في مقدمات النقد العربي القديم، إفريقيا الشرق، 2000.

. عمر الطالب، مناهج الدراسات الأدبية الحديثة، دار اليسر للنشر والتوزيع، بيروت.

. محمد الماغوط، اغتصاب كان وأخواتها، حوارات حررها خليل صويليح، دار البلد، ط1، 2002.

. محمد الماغوط، الآثار الكاملة ، دار العودة، بيروت.

- Eco Umberrto, La structure absente, introduction à la recherche sémiotique, Traduction Uccio Esposito-Torrigianil, Mercure de France, 1972.

- Gavins Joanna, Text world theory, an introduction, Edinburgh University Press, 2007.

- Ricoeur Paul: Le conflit des interpretations: essais d'heméneutique, Seuil, Paris.

الهوامش:

[1] عبد الرزاق بلال، مدخل إلى عتبات النص: دراسة في مقدمات النقد العربي القديم، إفريقيا الشرق، 2000، ص 24.

[2] سنية صالح هي زوجة محمد الماغوط، رثاها بعد رحيلها عام 1985، في قصيدة "سياف الزهور" وكتب على شاهدة قبرها: "هنا ترقد الشاعرة سنية صالح آخر طفلة في العالم". ينظر: محمد الماغوط، اغتصاب كان وأخواتها، حوارات حررها خليل صويليح، دار البلد، ط1، 2002.

[3] محمد الماغوط، الآثار الكاملة ، دار العودة، بيروت، بدون تاريخ.

[4] الآثار الكاملة، ص 7.

[5] اغتصاب كان وأخواتها، ص 29.

[6] المرجع نفسه، ص34.

[7] المرجع نفسه، ص 63 – 64.

[8] الآثار الكاملة، ص 8.

[9] اغتصاب كان وأخواتها، ص 77.

[10] الآثار الكاملة، ص 8.

[11] اغتصاب كان وأخواتها، مرجع سابق، ص 108.

[12] المرجع نفسه، ص 54 – 55.

[13] الآثار الكاملة، ص 10.

[14] اغتصاب كان وأخواتها، ص43.

أول قصيدة نشرها الماغوط كانت بعنوان "غادة يافا"، وقد نشرت في مجلة الآداب'البيروتية. (انظر اغتصاب كان وأخواتها، ص 47.)

[15] المرجع نفسه، ص 48.

[16] اغتصاب كان وأخواتها، ص77.

[17] الآثار الكاملة، ص11.

[18] الآثار الكاملة، ص 461.

[19] رينيه ويليك، أوستين وارين: نظرية الأدب، ترجمة محيي الدين صبحي، مراجعة حسام الخطيب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1987، ص98.

[20] المرجع نفسه، ص 100.

[21] عمر الطالب، مناهج الدراسات الأدبية الحديثة، دار اليسر للنشر والتوزيع، بيروت، ص 242.

[22] الآثار الكاملة، ص 82 . 83.

[23] المرجع نفسه، ص 92.

[24] المرجع نفسه، ص 11.

[25] المرجع نفسه، 92 . 93.

[26] الأعمال الكاملة، 93 . 94.

[27] Eco Umberrto, La structure absente, introduction à la recherche sémiotique, Traduction Uccio Esposito-Torrigianil, Mercure de France, 1972, P 367.

[28] Ricoeur Paul: Le conflit des interpretations: essais d'heméneutique, Seuil, Paris, P 68.

[29] Gavins Joanna, Text world theory, an introduction, Edinburgh University Press, 2007, P 8.

[30] مدخل إلى عتبات النص، ص 51.

[31] المرجع نفسه ، ص 52.